

وكأنني بيني الملاحم أصبحوا ... لأبي دلامة كلهم أمثالا

معروف الرصافي

حكومة الشورى في المملكة العثمانية

من أدق المسائل وأعضلها مسألة توليته الملك واختيار الأصلح لحكم الناس بالعدل والعقل. مسألة شغل بما البشر في كل دور من أدوارهم فقصت ولا تزال تقضي في تأييد سلطة الملوك ملايين من الناس. على هذا كان الحال في حكومات العرب بعد الإسلامية في القرون الوسطى والحكومات الإفريقية في القرون الحديثة.

الناس بخير ما حافظ ملوكهم على النظام في الجملة فإذا استرسلوا في شهواتهم وأهوائهم واستهانوا بمن تولوا رقبهم فعاملوهم معاملة الأنعام التي يرثها الابن عن أبيه ويتصرف فيها بما يشاء يفسد الأمر وتنتشر الفوضى ويتراجع العمران ويدعر السكان. سنة من سنن هذا الكون منذ قامت المجتمعات الأولى وما من شيء بدل الآن على زواها من العالم كل الزوال.

لا بد للناس من طاعة زعيم يرجعون إليه ببعض أمور دنياهم ولو صورة فإذا استقام هذا الزعيم وسار بمشورة أهل الرأي من قومه استقامت شؤونهم مرامهم. وقد كان من الخلافة الإسلامية وهي تجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية أثر عظيم من الجري على هذه الطريقة بإشراك الخليفة أصحابه وسروات بلاده في حربه وسلمه وغنمه وغرمه إلا أن هذه الصورة من الحكم لم يطل عهدها كثيراً فانقلبت بعد زمن قليل إلى ملك عضوض بسعي معاوية بن أبي سفيان وغدا يتقلدها صاحب القوة بل كل ابن يوصي له بما أبوه مهما كانت أخلاقه وكفاءته وسنه.

قال ابراهيم الأنصاري وهو ابراهيم بن محمد المفلوج من ولد زيد القاري: الخلفاء والأئمة وأمراء المؤمنين ملوك وليس كل ملك يكون خليفة وأماماً قال: ولذلك فصل بينهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه في خطبته فإنه لما فرغ من الحمد والصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة فرفع الناس رؤوسهم فقال: ما لكم أيها الناس أنكم عجلون أن من الملوك من إذا ملك زهد الله فيما عنده ورغبه فيما في يدي غيره وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل ويتسخط الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة الباه لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة فهو كالدرهم القسي (الرديء) والسراب الخادع جنل الظاهر حزين الباطن فإذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحي ظله حاسبه الله فأشد حسابه وأقل عفوه إلا أن الفقراء هم المرحومون وخير الملوك من آمن بالله وحاكم بكتابه وسنه نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وإنكم اليوم على خلافة النبوة ومفرق المنحجة وسترون بعدي ملكاً عضوضاً وملكاً عنوداً وأمة شعاعاً ودما مفاحا فإن كانت للباطل نزوة ولأهل الحق جولة يعفو بها الأثر ويموت لها البشر فالزموا المساجد واستشيروا القرآن والزموا الطاعة ولا تفارقوا الجماعة وليكن الإبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر أي بلاد كمخرسة (إن الله سيفتح عليكم إفصاحاً كما فتح عليكم أدناها).

وبعد فإن معاوية مبدأ شقاء هذه الأمة بملوكها أفسد أمرها كما قال الحسن البصري ليحقق أطماع نفسه ولم يكفه سفك دماء المسلمين في وقعة صفين حتى قام يعهد بالخلافة لابنه يزيد من بعده وفي العرب وقتنذ من رجالات قريش والصحابة بقية صالحة اضطروهم إلى مبايعة يزيد والسيوف مصلته على رقابهم في مسجد المدينة

واحتال لذلك بكل حيلة تأبى النفس الشريفة أن تأتيها. فأصبح خلفاء الإسلام بعد أن كانوا مساوين للرعية أرباباً يتحكمون بالأموال والدماء والأعراض تحكّم الحر المطلق الذي لا يسأل عما يفعل يقومون بضعف الناس ويفتنون بإفقارهم ويعتزون بإذلالهم.

جاء خلفاء من بني أمية وبني العباس عقلوا معنى الخلافة وأدركوا حقوق الرعية وعرفوا أن الشورى لا تستقر إلا إذا كان الخليفة كاملاً في ذاته وصفاته فأحبوا أن يجعلوا الملك بانتخاب الأصلح بعدهم كعمر بن عبد العزيز الذي مثل الخلافة الإسلامية على قاعدة الشورى أحسن تحيل ولطالما قال وقد رأى محمد بن أبي بكر: لو كان لي من الأمر شيء لقلدته أخلاقه بعدي. ولكن بني مروان يشق عليهم أن تخرج الخلافة عن رسمها القيصري الذي رسمه كبيرهم لتكون كالبقرة الحلوب ينتفع بها الأقرب فالأقرب من خليفة.

وكذلك فعل المأمون وقد رأى على بن موسى الرضا أعقل أهل السنة بالتشيع والشيعة بالاعتزال وهو المفرد العلم في عدله وسيرته وإيثاره مصلحة الأمة على مصلحة نفسه، يلة.

ومنذ ضعف أمر بني العباس واستولى ملوك الطوائف ضعف أمر الخلافة بن ذهب رسمياً جمعة وأصبح الملوك بحسب الاتفاق أن صلح واحد من مئة يجيء أخلاقه يفسدون ما وضعه. ساعد على ذلك في الأكمثر ضعف الآداب والأخلاق وزهد المتأخرين بعلوم الدنيا فصح فينا قول ذي عمرو من أمراء اليمن لجريير بن عبد الله إنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كتتمه إذا هلك أمير مرت تم في أواخر فإذا

كانت بالسيف كانوا ملوكاً يعضون غضب الملوك ويرضون رضا الملوكتم سلط عليهم جبارهم فساموهم سوء العذاب وضرهم بالفاقة وملاً قلوبهم رعباً. ولقد كتب لبي عثمان أن يتغلبوا على معظم بلاد الإسلام وبينوا دولتهم على أنقاض حكومات كثيرة فدان لهم المغرب الأوسط ومصر وبلاد اليونان ورومانيا والصرب والبوسنة والمهرسك والجبل الأسود وكريت وقبرص فانسلخت عن جسم الدولة بمساعدة أوروبا لها من الخارج ومناعي سكانها من الداخل.

والسبب الأعظم في ذهاب القاصية من بلاد الدولة كونها ما برحت منذ أول تأسيسها دولة سيف وسانان لا دولة علم وعرقان. وضخامة الملك لا تجدي إذا لم تنظم شؤونه بنظام الاجتماع والعلم الصحيح. فجريت البلاد بسياسة التفريق بين العناصر والأجناس بيد أن دوام الحال على ذلك محال ملامت أوروبا شاخصة أبصارها نحو الشرق تتحفز كل ساعة لاكتساحه منذ زهاء مئة سنة وتتطال إلى استعمارها القطعة بمد القطعة.

عرف وخامة العاقبة أهل الرأي في الأمة العثمانية فقاموا منذ نحو أربعين سنة يتنادون في الدعوة إلى لم التعت ومجارة الحكومات الأوروبية في نظامها فدعا شناسي وكمال ومدحت وفاضل وسعاوي وهم طليعة الأحرار الأبرار إلى نبد الحكم المطلق والاستعاضة عنه بالحكم المقيد أي ترك الحكومة الاستبدادية الشخصية والأخذ بسنن الحكومة المدنية الثورية لتشارك الأمة سطلتها في إدارة شؤون البلاد وهو يشرف عليها إشرافاً وينفذ ما تقرره تنفيذاً كما هو حال أعظم ملوك الأرض لهذا العهد إمبراطور الألمان وملك الإنكليز وميكاد واليابان ورئيس جمهورية أميركا على

اختلاف طفيف في كيفية تأليف مجالسهم وإشراك ذوي الرأي من أهلهم في سلطاتهم.

وما فتئ الأحرار ينشرون دعوتهم في جرائد لهم أنشؤوها وجمعيات الفوها وكلمتهم تزيد انتشاراً كلما اشتدت الحكومة في إرهابهم ولاسيما في المدارس العالية في الاستانة.

والمدارس العالية مجمع شمل أذكى الطلاب من الترك والعرب والجر كس والأرناؤود واللاز والروم والأرمن حتى إذا عادوا إلى بلادهم وتفرقوا في الولايات يضيفون إلى تذر الأهلين من فساد الأحكام تذكراً ويكثرون سواد الخانقين على ذلك النظام الرث القديم.

ولما أوشكت الدولة العلية أن تسقط سنة 1293 باجتماع كلمة أوروبا عليها أعلن القانون الأساسي بسعي مدحت باشا وأعوانه ولم تتمتع الأمة أربعة أشهر بفتح مجلس قبل فسدت النيات والتأثت الأحوال وتنتكرت الأخلاق وهزلت الفضيلة وباب القول الفصل للرشي واغباة والشفاعات وراجت سوق النفاق رواجاً سوق النفاقات رواجاً لم تعهده آئنة في آخر أيامها ولا رومية عند زوال سلطاتها بل ولا فروق لما تآذن الله بالخلال الدولة البيزنطية منها وكثر الغش والخديعة وغلوا في التجسس والوقية وكثرت الهجرة من البلاد فهجرتها قسم عظيم من العاملين والمفكرين من أهلها وتفقههم عمراتها فوصلت بعض أقطارها إلى درجة من الفقر لم يعرف التاريخ أنها بلغت في وقت من الأوقات وأمسى العاقل يعجب من بقاء الدولة العثمانية لم يعرف التاريخ أنها بلغت في وقت من الأوقات وأمسى العاقل يعجب من بقاء الدولة العثمانية على هذه الحال وما بقي منها إلى اليوم هو من أخصب بقاع

الأرض جمعت أطيب الكور من القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية وهي الصلة
والعائد بين شرق المعمور وغربه وأهلها من أقوى العناصر ذات الحضارة القديمة
المستفيضة كأن لها أيامها الفر العجلة وفيها العرب والفينيقيون والحثيون والروم
والبابليون والآشوريون والكلدانيون والأرمن واليهود.

بين العرب والفرس

من أشهر القصائد الاجتماعية العربية قصيدة لقيطو بن يعمر الأيادي ينذر قومه غزو
كسري إياهم وكان لقيط كاتباً في ديوان كسري فقطع لسان لقيط وغزا إباداً. قال
ابن دريد في كتاب الاشتقاق الذي نشره سنة 1854: ومن رجالهم لقيط بن معبد
صاحب القصيدة التي أنذر بها إباداً لما غزتهم الفرس وهي:

كتاب في الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من إباد

يعني جزيرة العرب وله قصيدة أخرى على العين مشهورة. وقد تيسرت لنا عدة
مطآن ومنها بعض مخطوطات فعارضنا القصيدة عليها منها هنا أصح الروايات
وأضفنا إليها بعض زيادات وما هي بنصها المعجب:

يادار عمرة من محتلها لجزعا ... هاجت لي ألهم والأحزان والجدعا

تامت فزادي بذذات الجذع خرعبة ... مرت تريد بذذات العذبة البيعا

بمقلتي خاذل أدماء طاع لها ... نبت الرياض تزجي وسطه ذرعا

وواضح أشنب الأنباب ذي شر ... كالأقحوان إذا ما نوره لمعا

جرت لما بيننا جبل الشموس فلا ... يأساً مبيناً ترى منهما ولا طعاما

طوراً أراهم وطوراً لا بينهم ... إذا تواضع خدر ساعة لمعا

يا أيها الراكب المزجي على عجل ... نحو الجزيرة مرتاداً ومنتجعاً